# باي تونس وحاضرتهُ

سحت منذ نحو سنتين في بلاد الجزائر وتونس مبتدئاً من وهران ومنها توجهت الى تلمسان بالقرب من حدود مراكش فعاصمة الجزائر فبلاد بليدا فقسطنطينة فعنّابة او بون كما يسميها الفرنسويون ثم تركت الجزائر وذهبت الى عاصمة تونس حيث تشرفت بمقابلة سمو محمد الهادي باي صاحب المملكة التونسية الذي جلس الآن على عرش البيت العلمي الحسيني وكان حينئذٍ وليّ العهد وهو الباي الثالث عشر من سلالة حسين بك علي تركي مؤسس البيت الحسيني فاني حينما بلغت تونس ذهبت لمقابلة سموهِ في قصرهِ الذي بناهُ في درمش بضواحي تونس فقابلني مرحباً وكنت قد تشرفت بمقابلة سموهِ اول مرة في مدينة فيشي من اعمال فرنسا . وهو على جانب عظيم من الانس والدعة مع ذكاء عقل ونباهة قدر يدلان على انهُ اهل للقيام بالمهام العظيمة التي عُهدت اليهِ خبير بالاحكام والشؤون المالية والفنون العسكرية اتم دروسهُ في احسن مدارس فرنسا ثم عاد الى وطنهِ يشارك المرحوم والدهُ في ادارة مهام البلاد وهو الآن سهران على مصالح امتهِ وتقدمها ونجاحها وهيئتهُ تملأ العين مهابة فهو طويل القامة اسمر اللون ذو عينين سوداوين براقتين يعلوهما حاجبان اسودان عريضان . وجبهتهُ عريضة ويداهُ كبيرتان يمسك باحداهما سبحة اما لباسهُ فاللباس الافرنجي وعلى رأسهِ طربوش مغربي

وعاصمة تونس واقعة في طول ٨° شرقاً وعرض ٤٤ ٣٦° شمالاً فهواؤها كهواء بيروت حارٌّ في الصيف ولكنهُ جيدٌ جدًّا وسكانها الوطنيون من المسلمين واليهود وغير الوطنيين من طوائف مختلفة. امّا الوطنيون فالمسلمون منهم سبعون الفاً واليهود اربعون الفاً وغير الوطنيين احد عشر الفاً من الايطاليين وعشرة آلاف من الفرنسويين والجزائريين وتسعة آلاف من اهالي مالطة والجملة ١٤٠ الفاً وقد كثر الايطاليون فيها والمالطية لقربها من بلادها .

والى شرق تونس وشمالها بحيرة طولها ستة اميال وعرضها ثمانية اميال ومساحتها ١٨٠٠٠ كيلومتر ومتوسط عمقها متران وكانت ارضها يابسةً تزرع فتغلّب البحر عليها فصارت بحيرة وكانت البواخر تفرغ شحنها في صنادل تسير فيها الى الجمرك على ما في ذلك من النفقة والمشقة فتألفت شركة حفرت ترعة في البحيرة طولها تسعة كيلومترات تمخر البواخر فيها وترسو في ميناء أُنشئ لهذه الغاية وتفرغ شحنها في الجمرك مباشرةً

وكان منظر المدينة قبلاً كمنظر مدينة مصر قبل انشاء احياء الازبكية والتوفيقية والاسماعيلية فاصبحت اليوم من المدن الجميلة بشوارعها ومتنزهاتها وكان امام بابها اراضٍ سبخة

فردمت وخططت فيها الشوارع وهي الآن حي الافرنج وأُطلق على شوارعها اسماء الممالك الاوربية كشارع روسيا وشارع النمسا وشارع اسبانيا ويقال للشارع نهج وفتح في وسط هذا الحي شارع يبتدئ من باب المدينة وينتهي الى البحر طولهُ ٥٠٠ متر وعرضهُ ٦٠ متراً وغرست على جانبيهِ الاشجار واقيمت الفنادق والمخازن الكبيرة والقهاوي فكأنهُ شارع من شوارع مرسيليا . وللمدينة باب كبير فاصل بينها وبين حي الافرنج ومنهُ دخلتها فوجدت شوارعها ضيقة الاَّ انها مبلطة بالحصى ونظيفة والدكاكين صغيرة لكنها مملوَّة بالبضائع وتسمى الاسواق باسماء ما يباع فيها . والسوق العمومية مبنية على شكل سوق استانبول وبالقرب منها جامع الزيتونة المشهور بمدرستهِ وظللت سائراً الى ان وصلت الى القلعة ويقال للقلعة هناك قصبة وهي قديمة العهد بناها الاسبان واحتلَّها الاتراك وغيَّر الفرنسويون هيئتها القديمة وفيها حاميتهم ولما فتحها الاسبانيون سنة ١٥٣٥ وجدوا فيها عشرين الف اسير من اسرهم القرصان وهم الذين فتحوا بابها للاسبان

ولما كانت شوارع المدينة ضيقة لا يمكن سير المركبات فيها مدوا خط تراموای خيل حول المدينة يبتدئ من الباب المذكور آنفاً و يسير الى جهة اليمين حتى يصل الى امام القلعة ثم يتجه شمالاً حتى يعود الى الباب . فتستغرق هذه الدورة نصف ساعة يرى الراكب فيها هيئة المدينة وفي اثناء مرور الترامواي ينزل الركاب ويدخلونها منهُ

ومما يستحق الرؤية في تونس الباردو او قصر البايات القديم الى جانبهِ قصور اخرى وثكنة للجند ولمحكمة والسجن وحول الجميع سور كبير. وكان الباي ينتقل كل يوم من قصرهِ الخاص الى قصر المحكمة او الديوان فيعقد جلسة مع وزرائهِ ومستشاريهِ للنظر في ادارة امور البلاد . ولكن بعد الحماية الفرنسوية ترك علي باي هذا المكان وبنى لهُ قصراً على شاطىء البحر . وقصر الباردو هذا لا شيء عليهِ من فخامة البناء ولكنهُ واسع جداً كثير الفسحات والدهاليز لما وصلت الى بابهِ صعدت على درج من رخام على جانبيهِ ثمانية اسود من الرخام الابيض حتى انتهينا الى فسحة مبلطة بالرخام الابيض حولها رواق قائم على اعمدة من رخام وعليهِ نقوش عربية لطيفة وآيات قرآنية وتحت الرواق قاعات اشبه بقاعات سراي شبرا بمصر ثم دخلنا قاعة الاستقبال وفيها يقابل الباي وفود المهنئين في المواسم والاعياد وهي واسعة جداً وفي صدرها العرش وهو مذهب وفي اعلاهُ شعار الحكومة التونسية وجدران القاعة مزينة بصور الملوك وبايات تونس بالقد الطبيعي وبين كل صورتين مرآة كبيرة . ومنها صورة محمد باي وحسين باي واحمد باي وصادق باي وهو الذي وقَّع المعاهدة مع حكومة فرنسا سنة ١٨٨١ وصورة علي باي الذي توفي حديثاً وصورة نابوليون الثالث وامبراطور النمسا. ولكن اثمن هذه الصور صورة الملك لويس فيليب

رسمت على قماش دوبلين وكانت تساوي نصف مليون فرنك حينما صنعت ولا يعمل الآن مثلها باقل من نصف هذه القيمة

وتوجهنا من هناك لمشاهدة المكان الذي كانت زوجات محمد باي الاربع يقمن فيهِ وهو كثير الزخرفة والنقوش فيهِ فسحة كبيرة مبلَّطة بالرخام الابيض في كل زاوية منها غرفة للنامة تشبه غرف المنازل الشهيرة في دمشق ويليها قاعة كبيرة لها قبة كقبب الجوامع تتألق من داخلها لكثرة ما فيها من النقوش المذهبة . وهذه القاعة والغرف والفسحة جعلت الآن متحفاً لما وجد في تونس من العاديات والتماثيل القديمة وهي كثيرة وبينها تمثال اورفه من الصوان وهي واقفة تعزف بالقيثارة وامامها وحوش الارض كالاسد والنمر والدب تسمع صوتها وعليها ملامح الطرب

وضواحي تونس كثيرة جميلة وقد تكفلت شركة ايطالية بمد سكة حديد بينها وبين العاصمة يبلغ طولها ٢٠ كيلو متراً وبعد ان مدّت غار الفرنسويون فاشتروها منها بمبلغ كبير . وهاك بيان هذه الضواحي

( حلق الواد ) اوغوليتا وهو اسم قرطجني والفرنسويون يقولون لاغوليت . لما ركبت قطار سكة الحديد اليهِ كانت بحيرة تونس الى اليمين والى الشمال اراضٍ منبسطة مزروعة قمحاً وشعيراً وزيتوناً وكانت حلق الواد الميناء القديم لتونس ولكنها انحطت بعد فتح الترعة في البحيرة . وعدد سكانها الآن ٦٠٠٠ نفس

( خير الدين ) نسبة الى خير الدين باشا الذي كان وزيراً لتونس وصدراً اعظم للدولة العلية بنى لهُ فيها قصراً على شاطئ البحر تحوّل الآن الى فندق وتياترو وحمامات بحرية يؤمهُ خلق كثير للتنزه نهاراً وليلاً

( قرطاجنة ) ذهبنا اليها ومعنا الدليل فشاهدنا حدود عاصمة الفينيقيين من جهاتها الاربع واراضيها تزرع الآن قمحاً وشعيراً بعد ان كانت من اكبر العواصم وامنعها حتى كادت رومية تعجز عنها وتفرجنا على الفورم والصهاريج الرومانية والمتحف الكبير الذي بناهُ الكردينال لافيجري الشهير وجمع فيهِ العاديات والآثار الفينيقية والقرطاجنية والرومانية واليونانية والاسبانية والتركية والعربية وقسمهُ الى اقسام كثيرة ملأها بالاسلحة والمصابيح والحلى الذهبية والفضية والنحاسية والزجاجية والآنية الحديدية والنحاسية والفخارية وغير ذلك شيء كثير

وبالقرب من هذا المتحف كنيسة عظيمة بناها الكردينال المذكور سنة ١٨٤٣ في البقعة التي توفي فيها الملك لويس التاسع الملقب بالقديس سنة ١٢٧٠ وكانت وفاتهُ بالطاعون الذي فشا في جندهِ وهو قاصد غزوة تونس . والكنيسة تفوق في الجمال والاتساع والزخرف كنائس

مصر والاسكندرية مع انهُ لا يصلي فيها سوى الرهبان . وقد انفق على بنائها النفقات الطائلة وكتب على جدرانها اسماء المتبرعين بالمال الكثير من فرنسا . وبعد وفاة الكردينال دفن فيها ونصب لهُ تمثال على قبرهِ من الرخام الابيض يمثلهُ وهو ماسك بيدهِ كتابًا ومتكئ على ظهرهِ.

وفي قرطاجنة ايضًا فندق صغير يحتوي على نحو عشرين غرفة يقيم فيهِ مندوبو الجمعيات العلمية والمؤرخون ينتبون ويبحثون ثم يعودون الى اوربا لنشر نتيجة ابحاثهم واكتشافاتهم . ولكن لسوء الحظ لم يبقَ من آثار قرطاجنة شيء يذكر لان كنائس تونس وجوامعها وقصر احمد بك في قسطنطينة وبعض كنائس مالطة وصقلية ورومية اجتمعت كلها على سلب الكثير مما وجد في انقاضها من اعمدة الرخام والمرمر والحجارة الزينة

(المرسى) . وهي مبنية على شاطئ البحر اشتهرت بقصر علي باشا الذي توفي فيهِ منذ شهرين تقريبًا . وهو متسعٌ جدًّا ولهُ بابٌ كبير امامهُ ساحة يخطر فيها حرس الباي الخصوصي وعددهم نحو مئة جندي وفي المرسى الآن نحو خمسة آلاف من السكان

(سيدي ابو سعيد) . مبنية على مرتفع يشرف على البحر وهواؤها جيدٌ جدًّا ومنظرها جميل وبيوتها يضاء تحيط بها اشجار الزيتون

وعلى مسافة بعض كيلومترات من تونس شمالاً اراضٍ منبسطة اتخذها الفرنسويون منتزهًا عموميًّا وقرروا انفاق عشرين مليون فرنك عليها وقد انفقوا نصف هذا المبلغ الى الآن زرتها في المركبة فخيبتني في منتزه فرنسوي لما رأيت من حسن تخطيط الشوارع تحفُّ بها الاشجار على جوانبها وفسقيات الماء في وسطها وفيها مرتفعات تطلُّ على مدينة تونس فتظهر منها كالحمامة البيضاء في الايكة الخضراء

(حمام ليف) . وهي مبنية على شاطئ البحر ويوصل اليها بسكة الحديد في نصف ساعة بين البحر والمزارع الغناء وراءها جبل ابو قرنين ارتفاعهُ ٦٤٠ مترًا ولهُ قنتان شاهقتان ومن ذلك سمي بابي قرنين. يتردد التونسيون والاجانب على هذه الضاحية خصوصًا في ايام الاحاد وهي تشبه سان ستفانو في رمل الاسكندرية وقد غرست الاشجار على طرقها . وفيها تياترو شاهدت فيهِ تمثيل جوق فرنسوي يمثل عادة ايام الصيف من كل سنة

واحسن الاشهر للسياحة في تونس شهر سبتمبر (ايلول) ويستطيع السائح ان يشاهد اهم مدن الجزائر وتونس وجبالها واوديتها وسائر ما يتعلق بها في اربعين يومًا

وقد افضت الكلام على تونس وضواحيها وسائر بلاد المغرب في الجزء الثاني من رحلتي وهو تحت الطبع ادوار الياس